د.محمد نجيب بوطالب

العولمة والتنوع الثقافي: مسيرة تبلور وتطور الهوية الثقافية المغاربية

تبدو الحاجة المعرفية والحضارية ملحة لدراسة الكيفية التي تشكلت بها الهوية المغاربية تاريخيا، من اجل رصد التطورات والانعكاسات على الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي لمجتمعات المنطقة. ويطرح هذا الموضوع في ضوء إشكالية التنوع والتماثل في الهوية الثقافية التي عرفتها المنطقة في خضم تحولاتها المعاصرة وفي سياق العولمة.

أن تجديد طرح السؤال حول هذه المسالة بالمقارنة مع النزعات الاستقلالية التي ظهرت خلال المرحلة الاستعمارية وخلال فترة بالتحرر الوطني لا يخضع إلى نفس المحددات والدوافع، بقدر ما يخضع إلى سياق المحاولات الرامية إلى نزع أحكام التعميمات الفوقية وحجب الكليات الإيديولوجية التي فرضت في المراحل السابقة من قبل الخيارات الفوقية المحلية والوافدة. وفي سياق هذا التوجه هذه الندوة هل أن أطروحة التنوع الثقافي التي ترفع اليوم وخاصة في مستوى الدول الكبرى والمنظمات الدولية تستند إلى رغبة حقيقية في استعادة تشكيل الواقع الاجتماعي والثقافي لوجهه الحقيقي اعتمادا على ما يتوفر اليوم من إمكانيات التحرر في التعبير عن الذات وإغرائه؟ ولعل التساؤل يستطيع النفاذ في التفكير إلى خلفيات الدعوة اليوم إلى إعلاء قيمة التنوع الثقافي في إطار جدلية أو مفارقة البناء والتفتيت للهوية الثقافية وهي جدلية نظام العولمة.

أولا: الهوية الثقافية في المغرب العربي:

يزداد في أيامنا الوعي بأهمية دور الوحدة والتكامل بين المجموعات الإقليمية لمواجهة تحديات المرحلة. ولئن بدت الوحدة المغاربية تمثل مطلبا شعبيا وسياسيا لمختلف النخب والتنظيمات والحركات الاجتماعية والسياسية في أقطار المغرب العربي، فقد أصبحت اليوم أكثر إلحاحا واشد طلبا في الداخل والخارج. ومما يزيد من هذه التوجهات ما طرحته العولمة في العقد الأخير من القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الجديد من تحديات اقتصادية وثقافية باتت تهدد مختلف الكيانات وتحرج جميع التجمعات وتدعوها إلى مراجعة آليات عملها ونسق أدائها.

ومن المفارقات التي تشهدها هذه المرحلة أن دعوات التوحد ورغبات التكامل المغاربي باتت تطرح من قبل الأوساط المغاربية والتكتلات العالمية ذاتها. وقد أضحت وحدة المغرب العربي عبر تفعيل مؤسسات وهياكل "اتحاد المغرب العربي" وباتت مؤخرة وبحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى طرح موضوع مقومات الوحدة ومنها الهوية الثقافية.

مفهوم الهوية في ظل التحولات:

أن دراسة هوية أي مجتمع إنساني عملية تبدو أكثر تشبعا من دراسة هوية الفرد، فالمجتمع ليس مجرد عملية حسابية للأفراد المكونين له، انه كيان متأثر بالمكان والزمان، فضلا عن أن هوية المجتمع خاضعة للتبادل والتجدد، خصوصا إذا كان المجتمع حركيا متقدما.

وقديما قال الفيلسوف اليوناني هرقليطس: ان الإنسان لا يستحم في نهر واحد مرتين".[1] ومن العوامل التي تساعد على ضبابية مفهوم الهوية اختلاف منطلقات التحليل وخلفيات الدراسين ودوافع دراستهم وهو ما جعل منه فكرة أكثر منه واقعا بسبب التبدلات المستمرة.[2] ومن مظاهر هذا الاختلاف ما شكل محاذير منهجية في تناول موضوع الهوية وهي مظاهر يمكن ملامستها في دراسة أبعاد الهوية بالمغرب العربي:

1. وجود خلط في المفاهيم ليس منبعه الاستنتاج العلمي، وانما ضعف ضبط المفهوم ودلالاته عند مستعمليه، كاعتبار الهوية مرادفة للدين أو التراث، أو اعتبار الهوية مناقضة للحداثة.

إلغاء احد أو بعض الأبعاد الأساسية للهوية خاصة البعد التاريخي وينتج ذلك عادة من الاستعمال المتسرع للمفهوم في سياق توظيفي ايديولوجي أو سياسي.

---

[1] Encyclopédia Universialis, T. 9, pp. 754-759.

[2] غراب (سعد) العامل الديني والهوية التونسية، سلسلة موافقات، الدار التونسية للنشر، ط 2، 1990، ص 12.

2. تناول مفهوم الهوية في معزل عن البعد الثقافي الذي يشكل عنصر تركيبه الأساسي ومعدنه الجوهري. فالثقافة تعتبر أكثر عناصر الشخصية التصاقا بالهوية، لأنها المجسد الفعلي لمختلف العناصر المكونة لها عبر الفعل التاريخي، وان بدت مستقلة. ولذلك تكاد الثقافة أن تكون مرادفا للهوية. أما أسباب هذا العزل والإقصاء للبعد الثقافي عن الهوية فيبدو أنها تعود إلى مشكل منهجي يجسده الإسقاط والنقل الحرفي دون اعتبار لاختلاف سياقات المفاهيم وخصوصياتها.

3. الاضطراب في الضبط الجغرافي لمفهوم الهوية المغاربية، وبالتالي لكيان المغرب العربي، الذي يطغى على استعماله المعطى الجغرافي أحيانا مثال ذلك (شمال إفريقيا، وهو تصنيف استعماري بالأساس، والاقتصار على الأقطار الثلاث دون القطرين الآخرين).[3] فسعد غراب يعتبر أن موضوع الهوية في المغرب العربي يعرف فقرا من حيث الدراسات مقارنة بما هو عليه في المشرق العربي.[4]

الثابت والمتحول في هوية المغربي العربي:

الهوية الثقافية ككل كائن حي، متغيرة، متجددة من داخلها، عناصرها وملامحها متبدلة باستمرار بحسب التحولات التي يعرضها المجتمع ككل وما يحيط به من متغيرات والهوية الثقافية لمجتمعات المغرب العربي هي التي عملت على توحيد الشخصية أو تماثلها على مدى تاريخ طويل نسبيا، وقد قاومت مختلف أشكال الذوبان والإلحاق على مر السنين، وبذلك فقد حافظت على ملامح مشتركة لشخصية تنعت من الخارج ومن الداخل بأنها واحدة ولها ما يميزها على أجوارها. ومن المهم أيضا، نميز بعض عناصر الثبات من التغير والأصيل من الدخيل في هذه الهوية. فالإنسان في هذه المنطقة لم يكن كائنا ثابتا ولا نموذجا نمطيا، بل كان على الدوام متحركا يخوض تجاربه في علاقة بماضيه وحاضره، يتطلع إلى المستقبل فيبني علاقاته مؤسساته في علاقة محيطه المليء بالتحديات الجسام وذلك من خلال مواجهاته مع العالم والطبيعة. لقد ظل الإنسان في هذه المنطقة الحساسة من العالم مرتبطا بقيمه المتحركة وبواقعه الحي المشدود إلى المستقبل المرجو. وعلى هذا النحو تشكلت الهوية في المنطقة متخذة في اغلب الأحيان لبوسا ثقافيا فاتصفت بالخصائص التالية:

أهم خصائص الهوية الثقافية المغاربية:

1- التوازن : إذا كان موقع المغرب العربي في قلب العالم الحي يمكنه من التوسط واتخاذ موقع بين مختلف أقاليم العالم، وهو ينعكس بطريقة أو بأخرى على توازن أبعاد الهوية وانسجامها، فان توازن الإنسان بين المادة والروح من خلال اعتماده لنظرته إلى موقعه كانسان في الكون يجعله يعطي قيمة للدنيا بمثل

[3] مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد خاص عن الهوية، العدد 17 سنة 1981.

[4] غراب (سعد) نفس المرجع، ص 11.

ما يعطيها للآخرة وللحياة الروحية عامة. وهذا ما حد بنظر بعض المحللين من الروحانية المطلقة والمادية الشاملة. وهذه الخاصية هي التي جعلت من الشخصية المغاربية شخصية متزنة تجمع بين الأصالة والتفتح، تعتز بذاتيتها وبتاريخها وتراثها بمثل ما تقدم على الحوار مع الآخر ومشاركته والأخذ منه والتفتح على حضارته.

2- الانفتاح: لم تكن الهوية المغاربية على امتداد تكونها في التاريخ القديم والحديث والمعاصر هوية قوية قومية منغلقة على ذاتها فهي متفتحة بطبعها. أن مصدر الانفتاح يأتي من إسهام كل المكونات الجغرافية والبشرية والثقافية التي ساعدت سكان المنطقة على مدى طويل في نحت ملامح شخصيتهم من تيارات واتجاهات متنوعة، ومن اختيارات تجارب عديدة تؤلف بينها جميعا نظرة أصيلة لمنزلة الإنسان في العالم. لقد مكنها موقعها على البحر الأبيض المتوسط من الانفتاح الدائم مما جعلها تمثل في عدة فترات من التاريخ همزة وصل بين الشعوب ومواطن تواصل بين الحضارات، هذه الخصوصية مكنت المغاربي اليوم من بعض السلوكيات التي ميزت علاقته بالعالم، فهو سهل الاندماج سريع التواصل مع الآخر يتقبله بصدر رحب ويتسامح معه ويتفتح عليه (يعرف لغته وثقافته ويتفاعل معها)، فشخصية المغاربي حوارية متقبلة للآخر الحضاري والثقافي دون عقد. وهذا ما نلمسه في بلاد المغرب من قدرة على إدماج بعض العناصر الثقافية الأوروبية والأندلسية والإفريقية في الثقافية المحلية (الأدب، الموسيقى، اللغة العمارة، اللباس، الطعام).

3- الحرية والمقاومة: لسنا بحاجة إلى استقراء تاريخ المنطقة لنلتقط شواهد تدل دلالة واضحة على الدور الذي لعبته هذه المنطقة في نشر الأفكار الحرة والتجاء الحركات المقاومة لمختلف أشكال القهر السياسي والاجتماعي. فقد كانت بلاد المغرب في العصور الإسلامية الأولى مجالا لاستقرار المتمردين الفارين من بطش الحكم المركزي (الشيعة والخوارج). والامازيغي الأصل هو الإنسان الحر، فقد عرف عن السكان الأصليين مقاومتهم الضاربة للشعوب الغازية، وقد عرفوا بتبنيهم السريع للمبادئ التي جاء بها الإسلام غير مفرق بين البشر في ألوانهم وأصولهم وقبائلهم فاندمجوا في الحضارة الغربية وساهموا من موقع الإضافة في بنائها. والشخصية المغاربية معروفة بتحبيذها ودفاعها عن قيم الشجاعة والأنفة ومقاومة الهزيمة ونصرة المظلوم. والمغاربة ساهموا كما هو معلوم في أهم الثورات التي عرفها عالمنا المعاصر فناصروا حركات التحرير وانخرطوا في مقاومة الاستعباد فكرا وممارسة، والمغاربة هاجروا ونزحوا حينما ساد في بلادهم الظلم والقهر بحثا عن الحرية.

4- الانسجام والائتلاف: ان وحدة التاريخ التي ارتبطت بوحدة الجغرافيا كانت على الدوام عنصر ترابط وانسجام بين مختلف مكونات الهوية المغاربية في مختلف تلوناتها الجهوية. وقد ساعدت سيطرة المذهب المالكي على اغلب ردهات التاريخ المغربي العربي الإسلامي في توطيد عرى الائتلاف بين سكان المنطقة.

وما كان لهذا المذهب أن ينتشر ويتدعم لو لم يجد في المناخ الاجتماعي والسياسي ما يتلاءم من جوهر أفكاره وصلب توجهاته. أن الإسلام الذي اعتنقه أهل افريقية، وسكان المغرب، هو إسلام أهل السنة والجماعة، أي إسلام الوحدة والانسجام، إسلام الوسطية والاعتدال، إسلام التسامح والاجتهاد وقد تجذر ذلك في التربة المغاربية مضيفا إليها من اجتهادات واستنباطات علماء القيروان وفاس وتلمسان وبسكرة والمهدية وتونس ومراكش وبرقة وطرابلس ونواق الشط وغيرها...

لقد أشار المرحوم سعد غراب إلى دور المذهب المالكي في تحقيق الائتلاف في المغرب العربي فذكر أن من أسباب سيطرة المذهب المالكي في بلاد المغرب وتوحيده لها مذهبيا ما ذكره ابن خلدون في مقدمته:

"وأما مالك رحمه الله فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وان كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل كما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار علم ومنها خرج إلى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة وشيخهم يومئذ ومامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده فرجع إلى أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا لأهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب"[5].

التنوع البشري في المغرب العربي:

تتكون الهوية المغاربية من عدة عناصر فمن ناحية الأصول السكانية هناك العناصر التالية: البربر من السكان الأصليين، العرب القادمون من المشرق في موجات متلاحقة والأندلسيون والأقليات العرقية الوافدة على المنطقة بأساليب ولأسباب مختلفة ومن مناطق عديدة وخاصة منهم العنصر الإفريقي والتركي والأوروبي.

وينطوي مفهوم الهوية المغاربية على مبدأ الوحدة وحدة المجتمع في عناصره المكونة للشخصية، فالتنوع يشكل عناصر موحدة أكثر من كونه يشكل عناصر مفرقة لأسباب جغرافية واجتماعية وتاريخية منها عدم وجود حواجز طبيعية بين أجزاء البلاد المغاربية. وقد وحدت الحضارات المتتالية التي عرفتها المنطقة من أسس الهوية الثقافية للمنطقة. والهوية في بلاد المغرب العربي تتداخل فيها ابعد ثلاث: الوطنية بأبعادها السوسيولوجية والعروبة والإسلام بأبعاده الحضارية والثقافية. أما ما يلاحظ من توتر في بعض تعبيرات الهوية فسببه اختزال في بعض الرموز التاريخية وفي بعض المحطات التاريخية التي مثلت مرحلة مهمة في تاريخ المجتمع، وهذا ما يؤدي في بعض الأحيان إلى الوقوع في النمطية أو

[5] ابن خلدون، المقدمة، ص 505-806، ط. بيروت 1969.

السلفية، خصوصا حينما يحشر الحاضر في الماضي أو يسقط الماضي على الحاضر، حينما تقر الانا إلى ماضيها عندما تشعر بمازق في الحاضر، دون قدرة على التجاوز والحفاظ على التوازن مع متغيرات الحياة المعاصرة يساهم في ذلك ضعف التاطير السياسي الذي صاحب ظهور وتطور مسار الحركات السياسية الحديثة في المنطقة.

خصوصية الهوية المغاربية:

أ- إن التجانس الذي حققه الإسلام بين مختلف العناصر المكونة للمجتمع المغاربي حول الإسلام من هوية دينية إلى هوية اجتماعية إلى درجة جعلت من الشخصية المغاربية تجد صعوبة في التمييز ما بين ما هو إسلام وما هو عروبة.

ب- إن مفهوم الهوية في الأقطار المغاربية له بعد براغماتي عملي، فالهوية المغاربية مرتبطة بالتنمية وبالحياة اليومية وبوثوقية واضحة، وهو ما توضحه مختلف التجارب الحديثة. وما يفسره غياب التنظير حولها.

ت- إن الولاء للدولة الحديثة إنما هو ولاء للهوية العامة بمختلف أبعادها. لذلك تسعى الدولة في مختلف مراحل تشكلها إلى ضمان مشروعيتها ومركزيتها من خلال الأبعاد الرمزية الدينية في الهوية.

ث- ولعل ضعف النزعة العقائدية في الدفاع عن الهوية المغاربية وما أدى إليه من ضعف التنظير لها، يعتبر عنصرا مميزا للهوية المغاربية، هذه الخاصية مثلت عبر مختلف المراحل عنصر ثراء للشخصية المغاربية التي ظلت غير منغلقة فاتصفت بالمرونة بفضل ما مكنها من سرعة التأقلم مع المتغيرات وتفادي الصدمات والانقسامات التي عرفت مناطق وهوية أخرى.

ثانيا: التجارب الوحدوية المغاربية: الخصائص والمميزات:

ان التجارب الوحدوية الوسيطة وخاصة تلك التي امتدت بين منتصف القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الرابع عشر للميلاد طبعت المنطقة حسب المؤرخين المعاصرين بجملة من الخصائص المميزة يمكن تلخيصها في العناصر التالية:

- لقد انبنى بعض هذه التجارب الوحدوية على استعمال القوة والغزو، فهي حركات توسعية سياسية حسب الرأي السائد في أوساط المؤرخين، وعلى كل حال فهي ناتجة عن حركات داخلية وليست خارجية، فضلا عن أن الحكم عليها يجب أن يتم في سياق عصرها.
- الاعتماد على عصبيات كانت تعيش حالة تنازع داخلي يقوم حسب التصنيف الانقسامي على مبدأ الالتحام والانقسام، وهو شان العصبيات المتعاقبة على الحكم المعتمدة على العصبية القبلية.
- تتالي واستمرار التهديدات من الحركات البدوية بما أدى إلى اضطراب حركة الاتصال وسيادة نزعات الاستقلال الإقليمي وتغذية النزعات الجهوية.
- من خصوصيات بلاد المغرب العربي إنها كانت لمدى طويل مجالا للثورة وظهور الدولة المتمردة والنازعة إلى الاستقلال.

- بقدر استمرارية العلاقة الروحية والحضارية مع المشرق فان الحركات السياسية في المغرب العربي كانت تنحي منحى استقلاليا خاصا.
- تأثر البنية الثقافية للمجتمع المغاربي بالمحيط الجغرافي، وهو ما يتجسد بالخصوص في التأثير بالفن الأندلسي في الأدب والعمارة والموسيقى وغيرها.
- انتشار الحركة الاستقلالية ورواج فكرة المغرب العربي في الفترة الحديثة في سياق حركة الاستقلال السياسي.
- استمرار التأثر بالمشرق العربي توجها وفكرا وتنظيرا رغم الطابع الخصوصي البراغماني الذي تميزت به الحركات المغاربية.

ومن أهم نتائج هذه التجارب المميزة أن هذه الوحدة لم تعد وحدة مجال يجمع جغرافيا واحدة تجمع ما بين برقة وطنجة كما ذكر ذلك المؤرخ أبو عبيدة البكري، بل انها تعدت ذلك فأصبحت وحدة حقل ثقافي انبنى على عدة مظاهر مثل الرحلات العلمية والتعليمية والاتصالات الصوفية الشعبية وغير الشعبية والعلاقات التجارية الوسيطة بين "بلاد السودان" والمشرق العربي من جهة ومع البلاد الأوروبية من جهة أخرى[6].

هذا ما تدعمه "الحملات الثقافية" التي تحدث عنها ابن خلدون في "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، القاهرة 1951". ففي فترة حكم المرابطين والموحدين والحفصيين أمثلة عديدة تدل على ظاهرة سهولة تنقل العلماء بمختلف نجلهم وتخصصاتهم في الفضاء، وهو ما يدل على اتساع وسهولة الاندماج والتبادل الثقافي الذي ساد مختلف أرجاء المنطقة متواصلا مع كل من المشرق والأندلس.

هذا التطور التاريخي انعكس على التطور في الانتماء الواعي لنفس الحقل الثقافي بما أدى إلى ظهور حقل ثقافي مغاربي متميز له مدارسه وإعلامه ومرجعياته ولونه الخاص. أن الوحدة الثقافية هي التي فرضت الوحدة السياسية التي سوف تصبح فيما بعد هي المحركة لتاريخ المنطقة وتشكلها الجديد.

لقد لعبت مدينة القيروان دور العاصمة السياسية والثقافية والدينية لهذا الإقليم ثم ما لبثت أن انبثقت مراكز إشعاع أخرى مثل فاس وتلمسان وبسكرة وتونس.

ثالثا: المغرب العربي بين فكرة التنوع وفكرة الوحدة في المرحلة الحديثة والمعاصرة:

---

[6] المنوني (محمد): العلاقات الثقافية بين المغرب وتونس الحفصية، ضمن مجموعة مقالات بعنوان "ورقات على الحضارة المغربية في عصر بني مرين" – الرباط: 1979 وانظر كذلك: محمد القبي "ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطة ببلاد المغرب الكبير ضمن كتاب "بناء المغرب العربي – مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس 1983".

إن فكرة المغرب العربي أو "الوحدة المغاربية" أو "بناء المغرب العربي" أصبحت تمثل قناعة أساسية رافقت مرحلة التحرر الوطني بعد تجربة مريرة مع الاستعمار. ولذلك فقد ارتبطت هذه الفكرة بمقاومة الهيمنة والرغبة في الانعتاق بكل الأقطار.
لقد امن الزعماء والمصلحون بهذه الفكرة وبلوروها في نشاطاتهم الفكرية والسياسية وقد تجسدت هذه البلورة في أعلى صورها في تآزر حركات التحرر المغاربية وتضامنها خلال تشكل مسيرتها النضالية وقد عرف هؤلاء بتنسيق نشاطهم التحرري من خلال تأسيس "مكتب المغرب العربي" بدمشق سنة 1946 وانشأ "مؤتمر المغرب العربي" مكتبا مماثلا بالقاهرة سنة 1947 الذي انبثقت عنه "لجنة تحرير المغرب العربي".
أن المرجعية الفكرية للمصلحين والقادة السياسيين من أمثال علال الفاسي وابن باديس تجسدت في ارتباط فكرة الوطنية بالإسلام الشعبي، ولئن كانت هذه النزعة وتوصف بالشعبية فهي سلفية شعبية منفتحة عبرة عنها علال الفاسي بقوله "وليس من الممكن لمؤرخ الحركة الاستقلالية بالمغرب أن يتجاهل هذه المرحلة العظيمة ذات الأثر الفعال في تطور العقلية الشعبية في بلادنا... ومن الحق أن نؤكد أن امتزاج الدعوة السلفية بالدعوة الوطنية كان ذا فائدة مزدوجة في المغرب الأقصى على السلفية وعلى الوطنية معا"[7].
وكانت مختلف مناطق المغرب العربي قد تعاطفت مع ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي (1921-1926) كما تعاطفت مع حرب طرابلس قبل ذلك بسنوات. كما كان لظهور حركة شمال إفريقيا التي طرحت الوحدة بين الأقطار المغاربية والمسماة "نجم شمال إفريقيا" التي أسسها الحاج مصالي منذ سنة 1926 وحركة الطلبة المغاربة الذين أسسوا جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين من أهم الحركات الشبابية التي ميزت هذه المرحلة.
لقد تحولت فكرة تحرير المغرب العربي وبالتالي بياؤه إلى فكرة عقائدية توحيدية متأثرة بالحركات القومية التي عرفها الغرب والشرق. فمن النقاط التي وردت في خطاب كان ألقاه مفدي زكرياء بمؤتمر طلبة شمال إفريقيا الرابع الذي انعقد بقاعة الخلدونية بتونس سنة 1934 نقتطف النقاط التالية:

- **(النقطة 5):** كل مسلم شمال إفريقي يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله هو أخي وقسيم روحي فلا افرق بين تونسي وجزائري ومغربي ولا بين مالكي وحنفي وشافعي واباضي وحنبلي ولا بين عربي وقبائلي ولا بين مدني وقروي ولا بين حضري وآفاقي. بل كلهم إخواني أحبهم واحترمهم وأدافع عنهم ماداموا يعملون لله والوطن، وإذا خالفت هذا المبدأ فإنني اعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه.

[7] علال الفاسي "الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي"، تطوان 1949.

- **(النقطة 6)** : كل من عمل للتفرقة بين أجزاء وحدة وطني اعتبره اكبر عدو لي ولوطني وأحاربه بكل وسيلة ولو كان أبي الذي أنجبني وأخي من أبي وأمي.
- **(النقطة 7)**: وطني شمال إفريقيا، وطن ماجد له ذاتيته المقدسة وتاريخه الباذخ ولغته وجنسيته العربية الشريفة وكل من سولت له نفسه الانسلاخ عن هذه الجنسية أو المروق عن هذه الذاتية اعتبره أبقا من وحدة وطني وخارجا عن جماعة المسلمين ليدخل لقيطا ملحقا بجنسية غيره فعليه غضب الرب أو غضب الشعب.
- **(النقطة 10)**: وطننا شمال إفريقيا جزء لا يتجزأ من جسم الشرق العربي نفرح لفرحه ونتألم لآلامه ونتحرك لتحركه ونسكن لسكونه تربطنا به إلى الأبد روابط اللغة والعروبة والإسلام.

وباستقلال أقطار المغرب العربي وخاصة مع استقلال كل من تونس والمغرب سنة 1956 انعقد مؤتمر طنجة التاريخي سنة 1958 بعد أن تمت عرقلة مؤتمر تونس 1956 من طرف الاحتلال الفرنسي الذي احتجز الزعماء الجزائريين في الطائرة التي كانت تقلهم من الرباط إلى تونس. وبذلك التركز الجماعي على تعزيز التضامن مع القضية الجزائرية مع العمل على البحث عن وسائل بناء المغرب العربي واستكمال تحريره[8]. أما في المرحلة الراهنة، ورغم توطد أركان الدولة الوطنية في المنطقة وتشكل كيانات سياسية متمايزة، ورغم ارتباط بناء الهوية بالتنمية ورغم بناء بعض الأطر السياسية للمغرب العربي أهمها اتحاد دول المغرب العربي فان بناء المؤسسات الثقافية وتوفر المخططات والبرامج لم يؤد إلى تعزيز فكرة وحدة المغرب العربي التي بقيت مرتبطة بالمشاعر والذكريات والأماني. فالمبادرات ضلت منعزلة والجهود باتت مشتتة بما حد من النتائج وقلص من الطموحات إلى تحقيق عوامل الوحدة وبناء المصير المشترك.

رابعا: أسئلة حول التنوع الثقافي: التنوع المبدع أم التنوع المفني:

يوحي كل من تقرير اللجنة العالمية المعنية بالثقافة والتنمية المعنون "التنوع الإنساني المبدع" وخطة عمل المؤتمر الدولي الحكومي بشان السياسات الثقافية من

[8] شارك في هذا المؤتمر ممثلون عن الاحزاب مثل علالة الفاسي واحمد بن المليح (المغرب) والباهي الادغم والطيب المهيري واحمد التليلي وعلي البلهوان (تونس) وفرحات عباس وعبد الحفيظ بوسوف واحمد بن فرنسيس (الجزائر). وقد رفعت القرارات التي اتخذها المؤتمر إلى محمد الخامس وادريس السنوسي والحبيب بورقيبة وحظيت بموافقتهم. وكان من أهم تلك القرارات تاييد الكفاح الجزائري مع التوصية بتكوين مجلس استشاري منبثق عن المجالس النيابية واقامة امانة عامة للمؤتمر.

اجل التنمية (ستوكهولم 1998) بضرورة إعداد سياسات ثقافية "تهدف إلى تعزيز التنوع الثقافي من اجل ضمان التعددية الثقافية المستديمة والتنمية البشرية"[9].
وتهدف أبعاد هذه التوصية إلى تعزيز المساواة وتحقيق الاندماج لدى الدولة والمجتمعات المدنية. فضلا عن الدعوة إلى مواجهة التوحيد النمطي من خلال إتاحة الفرصة للإفراد والجماعات بالتعبير عن الذات في كنف الديمقراطية.
فالتنوع الثقافي المنشود هنا، وحسب المنظمات والدول هو أن يكون مبدعا، تعدديا، ديمقراطيا، خلاقا،مستديما. فهل أن السعي إلى "تنوع إنساني مبدع" سيكون ممكنا في ظل الآثار التدميرية المتنوعة للعولمة على المجالين الثقافي والاجتماعي؟
فما السبيل إلى تحقيق تنوع مبدع بدلا من تنوع تذريري، فسيفسائي، تقسيمي وتفتيني يضعف الكيانات ويهدم الثقافات؟
وهل بإمكان الجماعات المندمجة أو التي في طور الاندماج أن تنهض من خلال إثارتها لاسترداد تاريخها العريق قبليا واثنيا ولغويا وغيره؟
ما السبيل أمام تفكك الوحدات والكنفدراليات والفدراليات والتحالفات والكيانات التقليدية، سواء تلك التي انبتت وحدتها على الإرادة الذاتية الحرة أو التي تم إدماجها عن طريق العنف أو الوصاية؟
فبإلقاء نظرة مقارنة على مظاهر التوتر والعنف الاثني والثقافي وبؤرها في العالم بين الماضي والحاضر فإننا نستنتج أن الحروب الأهلية والتوترات العرقية والقبلية أخذة في التأجج في عصر العولمة رغم لبوساتها السياسية (العراق-أفغانستان-الصومال-السودان).
ما هي الخطوط الحمراء في استحداث آليات الكشف والتدخل للإفراد والجماعات (المعارضات) في بناء ذاتيتها؟
أن إثارة مسالة "السكان الأصليين" في العديد من مناطق العالم أصبح يمثل سيفا مسلكا على رقاب الدول والجماعات والمجتمعات التي تكونت عبر تاريخ اندماجي خلاق بدوره. ولئن كانت هذه المسالة مقبولة ومفروضة من حيث الحرص على دراسة التاريخ والحفاظ على التراث الثقافي للشعوب القديمة فإنها تصبح ملغومة إذا ما ارتبطت بأهداف سياسية وبدوافع مصلحيه سياسية ضيقة.
ولعل الدائرة ستدور يوما ما على أصحاب هذه الأطروحات ذاتهم الذين انبتت كياناتهم المتحكمة اليوم على فرض القوة واحتكار الحكم وتشريد الشعوب. ولعلنا سنصل إلى يوم تطالب فيه شعوب باسترداد حقوقها وممتلكاتها وأراضيها التي انتزعت عبر القرون.
وانطلاقا من دراسة دور التربية والتنشئة والإعلام في العالم المتنفذ في صناعة الأفكار والنظريات حول مستقبل العالم يمكن القول أن الفرضية السائدة اليوم هي أن بعض الحضارات وبعض الديانات وكذلك بعض الشعوب وبعض الفلسفات هي

[9] اليونسكو، خطة 2003-2007، ص 37.

التي تعيق مسيرة التنوع الثقافي لكننا ومن خلال تحليل مضامين خطاب أصحاب هذه الفرضية وأبعادها نجد أن المقومات التي تقوم عليها العولمة تؤكد على التنميط وتسعى إلى خلق التشابه والتجانس بين الثقافات واهم هذه المقومات هي :

1- فرض التماثل من اجل الهيمنة في النظم التعليمية وفي المهن والوظائف وفرض اقتصاد السوق.

2- التفتيت والشرذمة للكيانات الثقافية والسياسية وتقسيمها (إحياء الانقسامات وتنشيط الانتماءات العرقية والاثنية والدينية والطائفية).

3- التحول من الجغرافيا السياسية والثقافية إلى الجغرافيا الاقتصادية بما في ذلك إعطاء الأولوية للارتباطات والمصالح الاقتصادية والتقنية على حساب الانتماءات الثقافية والقومية والسياسية.

ولتبرير هذه التوجهات تتجه آليات العولمة إلى العمل على مزيد إضعاف الحيز الجغرافي السياسي الذي توجد فيه الدولة القومية الغربية ذاتها والدولة الوطنية في الجنوب تحت زعم أن الدولة والمواطنة والتشريعات الداخلية أصبحت معوقا أمام التدافع السريع للسلع والمنتجات ورؤوس الأموال.[10]

أن التلويح بالشعارات لا يخفي عنا كدارسين وكعرب ومغاربيين أن نظام العولمة هو الذي يفرض اليوم على العالم سياسات ثقافية قائمة على التجانس والتشابه وقتل كل تنوع وثراء في الثقافات لأن منطق السوق وسياسة الكيل بمكيالين في تسوية النزاعات الدولية وطرق التدخل في المناطق المتوترة تؤكد أن التوجه إلى الإجهاز على أي منافس أو مقاوم إنما يتم من خلال إرباك الثقافة وعرقلة كل تنوع خلاق.

[10] ثابت (احمد)، "العرب والعولمة ومخاطر التنميط الثقافي"، مجلة "شؤون عربية" عدد 120، 2004، ص154.

قائمة المراجع:

- Encyclopédia universialis, T9, pp 754-759.
- سعد غراب، العامل الديني والهوية التونسية، سلسلة موافقات، الدار التونسية للنشر، ط2، 1990، ص 12.
- مجلة الفكر العربي المعاصر عدد 17، 1981.
- سعد غراب، "المذهب المالكي عنصر ائتلاف في المغرب العربي" تونس 1978، نشر م.د.أ.إ.أ. 1979.
- عدد خاص عن الهوية، مجلة الوحدة، باريس فيفري 1985.
- Peuples méditerranéens, N°24, Juillet 1993.
- بناء المغرب العربي، جماعي، م.د.ب.أ.أ، تونس 1985.
- أفاق ومراحل بناء المغرب العربي، م.د.ب.أ.أ، تونس 1989.
- محمد عابد الجابري، المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية، الحداثة والتنمية، الدار البيضاء، 1988.
- الشاذلي الفيتوري "المقومات الثقافية لوحدة المغرب حاضرا ومستقبلا" في بناء المغرب العربي، إصدار مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1983.
- احمد ثابت، "العرب والعولمة ومخاطر التنميط الثقافي"، مجلة "شؤون عربية" عدد 120، سنة 2004، ص 154.